العـــزاء

قصة بقلم محمد فكري

بدأت المشكلة حينما دق جرس التليفون وتناولت زوجتي السماعة واخذت في الحديث ، فقد سمعتها بعد ترديد عبارات التحية المألوفة تقول : .. أحقا ! ومن الذي مات ؟ آه .. لا تعرفين .. يا للاسف .. بالطبع .. بالطبع .. لا بد ان نذهب .. نعم اليوم .. ووضعت سماعة التليفون واستدارت نحوي قائلة :

ـ جارتنا الاميركية .. يبدو ان احد اقربائهم قد مات .

وهذه الجارة التي تحدثت عنها زوجتي ، لم أزرها وزوجها منذ اقمت في موسكو ، وجاءت سكناي في نفس العمارة التي يسكنون بها، فقد كنت التقي بالزوج الاميركي في المصعد حين هبوطي او صعودي فيلقي احدنا على الاخر تحية الصباح أو المساء . اما زوجتي فقد تعرفت على زوجته اثناء خروجهما لتسوق المأكولات من المحلات صباحا ، وجرت بينهما تلك المعرفة التي تحدث عادة بين جارتين تلتقيان في المحلات كل صباح ..

واستطردت زوجتي :

ـ ولا بد ان نذهب لعزائهم اليوم .

ـ اليوم .. كيف !؟

قلتها مستنكراً ، ففي هذه الليلة بالذات كانت لدينا ذكرتان لمشاهدة فيلم « انه عالم مجنون .. مجنون .. مجنون » وفي هذه الليلة كذلك كان علي أن ازور صديقي الفيتنامي « خاو » . فقد دق جرس تليفوني بالمكتب بعد الظهر بقليل ، وحينما رفعت السماعة وسألت عن المتحدث ، جاءني صوت خافت عميق ، كأنه صادر من اعماق قبر في جوف الارض ..

ـ خاو ...

واسرعت استفسر :

ـ كيف حالك ؟ ماذا بك ؟

فصافحت اذني كلمة واحدة ، اعقبها صمت طويل :

ـ مات ...

وادركت على الفور من الذي مات ، عرفت من الذي يحتل في قلبه ذلك الحب الكبير الذي جعل صوته يبدو كالصادر من جوف قبر. انه اخوه الذي طالما حدثني عنه واراني صورا له . وكنت ادرك مدى الحزن الذي الم بصديقي لفقد اخيه ، ومدى حاجته الى صديق يثق به ويركن اليه ليفضي اليه باحاسيسه ومشاعره . وحاولت ان اقول شيئا رداً على كلمته .. مات .. ولكنني لم اجد عبارة واحدة تصلح لمواساته واحسست ان اي قول لا جدوى منه .. فقلت :

ـ ساكون لديك في الساعة السابعة .

وفي اللحظة التي طلبت فيها زوجتي ان نزور جارتها الاميركية ، كنا نرتدي ملابسنا استعدادا للخروج لزيارة صديقي .. ثم لمشاهدة الفيلم الذي اصرت زوجتي على رؤيته اثناء عودتنا .. فقلت :

ـ الا نستطيع ان نؤجل زيارة صديقتك الى الغد ؟

قالت :

ـ لا نستطيع .. ماذا تقول اذا عرفت انني علمت اليوم ولم اذهب !؟

ـ وماذا سنفعل الان ؟

ـ لا ادري .

قالت ذلك وانا اعلم تماما ما يدور في رأسها ، كانت تنتظر ان اؤجل زيارة صديقي ، وآثرت اول الامر ان ادور حول الموضوع تلافيا للصدام بيني وبينها .

فقلت :

ـ من الذي توفي لجارتك ؟

فالت :

ـ لا أدري .

فقلت مستنكراً :

ـ لا تدرين !! تريدينا ان نذهب للعزاء دون ان نعرف الميت !؟ رجل هو ام امرأة .. قريب للزوج ام للزوجة .

قالت :

ـ يكفي ان نذهب ونقول بعض عبارات العزاء .. وقد نعرف اثناء الحديث .

ـ وكيف نذهب بالله عليك .. متى نذهب ؟

ولم تجد جدوى من المواربة فقالتها صريحة :

ـ يمكنك ان تؤجل زيارة صديقك الى الغد .

فعالجتها بحزم :

ـ لا .. سنزوره اليوم .. وسنخرج الان فوراً اليه .. وعليك انت ان تختاري بين الفيلم او زيارة جارتك .

ولاحظت لهجتي الحازمة ، ونبرة الغضب في صوتي ، فسألت :

ـ هل يمكنك حجز تذكرتين للفيلم غدا ؟

فقلت في كلمة مقتضبة :

ـ نعم .

قالت :

ـ اذن نزور جارتي الاميركية اليوم .. بعد زيارة صديقك .

***

رحت اقود السيارة الى احد اطراف موسكو في طريقي الى البيت الذي يقيم صديقي في غرفة منه لدى اسرة روسية . واخذت اتخيل ما يفعله صديقي الان ... ايبكي !؟ أمستلق هو على اريكة يحملق في لا شيء !؟ اهو ينظر من النافذة يعجب للعالم وما يدور فيه .. ايمر في رأسه شريط لحياته وحياة اخيه منذ كانا صبيين في القرية وفي المدرسة الى أن انضم اخوه للثوار وسافر هو في طلب العلم ..؟ وبدت لي على لوح الزجاج الامامي للسيارة صور شتى لصديقي كما حاولت ان اتخيله ، وعجلات السيارة تطوي الارض ، والطريق من تحتها ينسحب .. وينسحب الى الخلف ، والسيارات والناس تمرق من امامي كالاخيلة ، وهو ينتظرني الان .. ينتظر صديقا يركن اليه ليفضي اليه باحاسيسه ومشاعره .

ومنذ رأيته وعرف انني عربي ، زادت بيننا الالفة ، وتوطدت بيننا الصداقة . قال :

ـ اذا استطعتم القضاء على الاستعمار .. وتحقيق الوحدة ، فستصبح امتكم من اعظم امم الارض .

رأيته اول مرة على نهر موسكو ، كنت قد ذهبت لاتنسم هواء النهر وما يحيط به من زروع واشجار ، واقتربت من الشاطىء حتى اضحت المياه تحت قدمي ، ورأيته جالسا هناك على مدرج على حافة

النهر يحدق في المياه التي تنعكس عليها بعض خيالات قرص الشمس الاحمر الذي يركب الافق ، واقتربت منه .. وجلست بدوري اتملى المرآة السمراء التي تنضح بحمرة الشمس الغاربة ، والتفت فرآني.. فتمتم باللغة الروسية :

ـ منظر جميل .

قلت :

ـ نعم .

فعاد يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ انه يحمل الانسان الى افاق بعيدة .. فيرى الماضي.. والحاضر ويحلم بالمستقبل .

ثم سألني عن موطني ، ولما عرف انني من مصر ، استدار الي في اهتمام وقال :

ـ انني اعرف بلدكم .. اقرأ كل شيء عنها .. لقد هزمتم الاستعمار في بورسعيد .. وتبذلون الجهد لبناء بلدكم .. السد العالي .. اليس كذلك .. ؟

وابتسم . فابتسمت ، وسألته :

ـ وانت .. ماذا تفعل هنا !؟

فاجاب دفعة واحدة :

ـ احارب .

فنظرت اليه ، وابتسمت في دهشة ، وسألت :

ـ تحارب !؟

قال :

ـ نعم .. هناك نحارب الاعداء بالسلاح .. وهنا نحاربهم بالعلم لبناء ما يخربونه .. وانا ادرس الهندسة .. الا تجد ان هذه حرب يجب ان ننتصر فيها ؟

فابتسمت قائلا :

ـ طبعا .

فاستطرد :

ـ اما اخي فهو يحارب في الجبهة الاخرى .. يحمي الارض بالسلاح ..

وبدأ يحدثني عن اخيه ...

واقتربت السيارة من البيت ، واستدرت مع الطريق ليبدو امامي منزل احمر يبدو منه زجاج النوافذ بلا اخلاف خشبية ، وينسحب الى اعلى كراس المثلث حتى يتيح للمطر والجليد ان ينزلقا ، ووضعت السيارة بجانب الطريق ونظرت الى زوجتي .. كانت ساهمة ، فلم اتحدث اليها كلمة واحدة طوال الطريق .

***

صعدنا الى الطابق الثاني الذي يقيم فيه صديقي ، وطرقت الباب ففتحت لنا السيدة الروسية البدينة التي يقيم لديها ، وعرفتني في الحال لكثرة ما ترددت على صديقي ، وابتسمت لزوجتي واشارت لنا الى الداخل قائلة :

ـ تفضلا .

قلت ونحن ندلف الى الداخل ، وأردفت بعدي زوجتي :

ـ يوم سعيد .

فردت المرأة الروسية البدينة بوجهها السمين الذي تلوح عليه البساطة والطيبة :

ـ يوم سعيد .

ثم سألتني :

ـ اهذه زوجتك ؟

فلما اجبت بالايجاب اخذت ترحب بها ، وافسحت لنا الطريق ، وقصدت من فوري وخلفي زوجتي والسيدة الروسية الى غرفة صديقي .. وما كدت اصل الى باب الغرفة حتى انفرج قليلا وبدا صاحبي بعوده القصير النحيل ، وجلده المشدود على عظمه ، كأنما امتص منه ماء الحياة .. ويبدو انه كان ينتظر وقع اقدامي .. واشار لي الى الداخل ، وما كدت اتوسط الباب حتى نظر الي طويلا بعينيه الضيقتين، وارتعش انفه المفلطح قليلا ، وقال :

ـ مات ..

ولم اقل شيئا ، وانما اخذته بين ذراعي ، واحتضنته طويلا .. ثم دخلت وتبعتني زوجتي والمرأة الروسية التي اخذت تتحدث اليها في ود .

ونظر صديقي الى زوجتي وقال :

ـ لقد كان شابا عظيما .

قالت مواسية :

ـ البركة فيك .

فقال في عجلة :

ـ انك لم تعرفيه .. لن اكون مثله ابدا .. ان زوجك يعرفه.. لقد حدثته عنه كثيرا .

ووجدها فرصة ينفس بها عن نفسه في ان زوجتي لم تكن تعرف شيئا عن اخيه ، فقام واحضر صوره التي كنت قد رأيتها من قبل ، واخذ يريها لنا واحدة بعد اخرى .. هذه في القرية .. وهذه وهو بملابس الحرب .. وهذه وهو يخطب بين الفلاحين .. واعتدل واخذ يحكي عن اخيه ..

لقد غادر القرية صغيرا .. لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة حينما غادر القرية .. وعلمنا بعد ذلك انه اصبح من الثوار .. لم يعد الينا الا بعد عشر سنوات .. ولكنه عاد شخصا اخر .. كان قد تعلم الكثير .. واخذ يعلم اهل القرية .. كان يدخل كل بيت .. يعلم الفلاح كيف يزيد انتاجه .. والطالب كيف يعكف على دروسه .. والاسر كيف تعيش وتثور على الذل والفقر .. وفي يوم من الايام قال .. العلم .. العلم .. يجب ان تتسلح قريتنا بالعلم .. وكنا قد فهمنا الكثير ..فاجتمع اهل القرية واختاروا عدة شبان .. كنت انا من بينهم .. ارسلونا لنتعلم ..

وصمت صاحبي لحظة ، ثم استطرد :

ـ ثم علمت انه ذهب وشباب القرية يحاربون الاميركان .. يطردونهم من ارضنا .

وصمت مرة اخرى ، ثم هز رأسه في اسى :

ـ ولكنه مات .. قتلوه .. جاءوا من اقصى الارض ليقتلوه ..

ثم اعتدل في جلسته وهتف :

ـ ولكنه دمرهم قبل ان يقتلوه .. ضحى بنفسه ليدمر دباباتهم ومصفحاتهم ..

ولمع في ذهني خاطر سريع .. ايكون قريب جيراننا الذين سنعزيهم اليوم .. واحدا من الذين قتلوا في فيتنام !!؟ كم يكون من امر عجيب حقا .. ان نعزي في قتيلين قتل كل منهما الاخر ...

وكان صاحبي ما زال يقول .. نعم .. لن اكون مثله ابدا .. انه ..

***

حينما استدرت بالسيارة مع ميدان « دزرجنسكايا » بدت على يساري سينما متروبول ، ولاح تحت الاضواء اعلان فيلم « انه عالم مجنون .. مجنون .. مجنون .. » فبدا تحت عيني مغريا للغاية،وكان الحزن لا يزال يخيم على نفسي لاجل صديقي ، وكآبة قاتمة تغشاني لما سمعته عن الحرب والموت والدمار ، وكنت في مسيس الحاجة لبعض الخيالات التي تشغل ذهني ، فالتفت الى زوجتي قائلا :

ـ لندخل السينما اليوم .. ونؤجل زيارة صديقتك الى الغد .

قالت : ـ لقد اتفقنا على زيارتها اليوم .

فلم أعلق على قولها ، وانطلقت في طريقي لا ألوي على شيء .

***

استقبلتنا جارة زوجتي الطويلة الفارعة بالترحاب ، ومدت لنا مصافحة ذراعا موردا ، ثم خف زوجها لاستقبالنا ، وهو رجل فارع العود احمر الوجه تلوح عليه آثار النعمة ، فقادانا الى صالون فاخر يدل على ثراء ..

ورسمت على وجهي آثار الحزن .. اذ كيف أحزن حقيقة وانا لا اعرف الميت .. حتى بمجرد الوصف .. طفل هو ام رجل ام امرأة ، والانسان ما لم تكن له سمات معينة او رمز معين .. لا يعدو ان يكون رقما .. واحد مات .. ما شكله .. ما لونه .. ما اسمه .. في اي ظروف مات .. !!

وبدأت زوجتي الحديث فقالت :

ـ لقد علمت من جارتنا بأمر الـ ..

فقالت الاميركية :

ـ تقصدين الـ ... انه لامر مؤسف حقا .

واستأنف الرجل :

ـ لقد اوقفت لندا اجتماع ابيها برؤساء الكونجرس ، وابلغته النبأ .. فقال .. ان البيت الابيض سيشهد محزنة الليلة .

واضافت المرأة :

ـ وعلمت زوجة الرئيس وهو في موكب في مدينة لنكولن ..فقالت انها احست كما لو ضربت بصخرة على معدتها .

وبدا لي ان الرجل وزوجته يفخران بقول الرئيس وزوجته وحزن البيت الابيض .. وشعرت باشمئزاز مفاجيء .. ايهمكما الفخر بما قال الرئيس وزوجته اكثر مما يحزنكما موت قريبكما .. !؟

ولكن ما بال الرئيس وزوجته والبيت الابيض يحزنون كل هذا الحزن ؟ وتأكد لي الخاطر الذي كان قد داخلني من ان قريبهما قد مات في فيتنام .. لهذا قد يحزن البيت الابيض حقا .. ان لم يكن من اجل مآسي الفيتناميين الذين يدمرون حياتهم ومدنهم ، فمن اجل الاميركيين الذين يموتون هناك .. ومن اجل آبائهم وامهاتهم وأبنائهم.. وافصحت عن مشاعري بصوت مسموع :

ـ لعل البيت الابيض سيشهد هذه المحزنة من اجل الاميركيين الذين ماتوا في فيتنام . فنظرت المرأة الي في دهشة واستغراب ، وقال الرجل :

ـ ألم تقرأ الخبر !؟

وقدم لي الجريدة ، فتناولتها من يده ورحت أقرأ « عم الحزن امس البيت الابيض على أثر مصرع الكلب « هيم » احد كلاب الصيد التي يقتنيها الرئيس جونسون ... »

ورفعت ناظري لارى صورة الكلب هيم .. وبكل ما في صوتي من سخرية ورثاء صحت :

ـ احضرته .. هو المرحوم .. !!

فاسرعت المرأة تقول :

ـ ان عزاء اسرة الرئيس كما قالت زوجته ، هو وجود اثنين من ابناء الكلب هيم ..

ووجدت نفسي بلا وعي انفجر في الضحك ، وظللت اضحك حتى دمعت عيناي ، والرجل وزوجته ينظران الي في استغراب ودهشة ، ووضعت يدي في جيبي لاخرج منديلي فاجفف دموعي ، فوقعت يدي على ورقتين .. اخرجتهما ونظرت اليهما فاذا هما تذكرتا فيلم : « انه عالم مجنون .. مجنون .. مجنون . » فمزقتهما في حسرة ، والقيت بهما في المطفأة ، وما زال الرجل وزوجته ينظران الي في دهشة واستغراب .

موسكو — محمد فكري

صدر حديثا

بابا همنغواي

بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياةهمنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب